التجارة وتهافتهم الى الشراء — قد يرتفع الى ان يتجاوز كثيراً أو قليلاً السعر الحقيقي أي السعر الذي يغل المسعر عنده الغلة المطلوبة . ولا تطمع بان تكسب من فرق السعر (مع علمك ان السعر تجاوز الحد) لظنك ان السعر لا بد ان يرتفع بعد . لانه بعد تجاوزه الحد في الارتفاع يصير عرضة للهبوط لا للارتفاع ولو كان الناس مندفعين في الشراء ويصبح البيع متعذراً جداً كما حدث مؤخراً في مصر فان الاسعار لم تهبط بعد ولكن البيع صار صعباً . وسبب عدم هبوط السعر حتى الآن ناجم عن ان الناس لا يزالون طامعين لان الهيضة الاخيرة لم تزل مؤثرة عليهم . ولكن متى مرَّ عهد كافٍ لاقناعهم بان الاسعار لا ترتفع لكي يربحوا كما يطمعون وخاب مؤملهم تتراخى ايديهم ويبيعون قانعين بالخسارة القليلة . وحينئذٍ تبتدئ الاسعار تتساقط تدريجاً

ومن يعش يرَ نقولا الحداد

كلام لابن الشرق في الغرب

الآن بدأتُ أُحبُّ أميركا

مثال من مدينة اميركية

٢

وعدتُ القارئ في المقالة السابقة ان أجعله يسوح معي سياحة صغيرة في داخلية الولايات المتحدة لأُريه جمهوراً غير الجمهور الذي ألفه في نيويورك وكان السبب في نفرته منه بل من أميركا كلها . واول ما أطلبه ان يتجرَّد من العواطف والمبادئ والافكار التي اكتسبها في الشرق وفي اثناء حياته كلها وينظر الى الكائنات حوله من أشياء واشخاص نظراً جديداً كأنه لم يرَ قارة غير هذه القارَّة ولا جمعية بشرية غيره هذه الجمعية

سبب خفيٌّ

اصبحتُ في وليمنتك التي عليها مدار هذين الفصلين في يوم أحد ففتحت نافذة غرفتي في الفندق فالفيتُ المدينة راقدة رقوداً تاماً كانّ الظلام لا يزال يخيم عليها . فلم أرَ في الشارع ابن يوم ولا ابن الف يوم ولم اسمع صوت مركبة والقطار الذي كان يزعجني في الليلة الفائتة بصراخه وعويله في اثناء مروره المتتابع في المحطة المجاورة لفندقي سكت صوته الاّ قليلاً . فقلتُ حيٌّ هو اسم الرب هذا يوم الرب عند القوم فلننزلن لنرى كيف يقضونه

انحدرت من الفندق بعد ان كنت قد حططت الرحال في سبع مدن في تلك الولاية (كناتكت) وهي دنبري وبريجبور ونيوهافن ومريدن وورببري وترنتن وهرتفرد . وكنتُ قد بدأت في الحقيقة ان اشمّ رائحة جديدة لم أعلم سببها الا متأخراً . وانما وقفتُ عليه في بوسطن

والاسباب الخفية لا تُكشف الا في المكاتب

ان بوسطن أعظم المدن في الولايات الشرقية بعد نيويورك وفيلادلفيا . وكأنها نسخة مصغّرة من نيويورك بكل ما فيها حتى سكتها الحديدية تحت الارض (النفق) وفوق الارض (الاليفاتر) وانوارها الكهربائية الساطعة في شارع واشنطن الذي يشبه برودواي نيويورك . فمتى يصبح واشنطون نيويورك كواشنطن بوسطن

ساقتني قدماي الى مكتبة بوسطن العظيمة أو بالاحرى ارادتي لانني سرتُ اليها في الترمواي لامشياً . وبناءُ هذه المكتبة أجمل بناءٍ لمكتبة عرفته حتى الآن . وحسبها داراً لائقة للعلم انها مكتبة تجتذب النظر الى جدرانها المربعة الشاهقة فقد نُقش في جهاتها الاربع اسماءُ جميع العلماء والادباء والفلاسفة ومشاهير الناس من عهد

اليونان والرومان الى اليوم نقشاً جميلاً تقرأه من الشارع . ولكنه (صَلاته) أي بلا ترتيب . فقد وضعو اسم كارنو مثلاً بين اسماء مشاهير العلم والفلسفة فأي كارنو يعنون ؟ أأحد رؤساء الجمهورية الفرنسوية السابقين أم أحد اجداده الجنرال ؟ كلاهما لم يعملا شيئاً يستحق هذا التخليد والتمجيد بازاء ابطال العلم والفلسفة الصناديد . وقد رأيتُ اسم كارنو ولم أرَ اسم جول سيمون مثلاً ولعلّ هذه من آثار العجلة الاميركية في كل شيء حتى العلم واعتداد الاميركان بالظواهر والنتائج اكثر من اعتدادهم بالبواطن والحقائق

ورأيت في المكتبة رجالاً ونساءً جلوساً يطالعون . فما يفعل هؤلاء الادباء في هذا الحَرَم الادبي المقدس ؟ لعلهم ليسوا باميركان . انهضوا وانزلوا الى الشوارع حيث البنوك والمعامل وصوت المدينة تدعوكم الى الحركة والعمل والنشاط الغريب . انتم اميركيون والوقت لديكم مال فلا تضيعوه في المطالعة والتفكير والتنقيب . هذا ليس بأميركي . ولكني نسيت انني في بوسطن حاضرة العلم والأدب في الولايات المتحدة . حيث تجارة الكتب أروج منها في كل مدينة اميركية غيرها — حيث مدارس العلم والفنون اكثر واقوى منها في أي مدينة اميركية — حيث صدرت اول جريدة اميركية في العالم الجديد (١٧ نيسان سنة ١٧٠٤) — حيث علا اول صوت يطلب الاستقلال عن الانكليز وارتفعت اول راية للتمرد عليهم ولا تزال المبانيَ التي كانت تُقام فيها اجتماعات الشعب لهذا الغرض (ستي هول وفانول هول) قائمةً بجانب حديقتها الجميلة الكبرى التي مساحتها (٢٠ هكتاراً) — حيث يفاخرون بانهم يتكلمون انكليزية أصحّ من انكليزية سائر الولايات — حيث يباهون بانهم اقرب الى الامة الانكليزية في اخلاقهم ومشاربهم من سائر الامة الاميركية

و بعد هذا فهمتُ لماذا يُكثر المستر كرنيجي التبرع لانشاء المكاتب حتى

أصبح ذلك شهوته وهواه . فانه يعلم ان الشعب الاميركي شعب عملي تجاري صناعي واكثره عملة ما زالوا عملة أو عملة اغتنوا وأصبحوا تجاراً او اصحاب معامل . فهو يريد تعويدهم المطالعة والبحث ليرتقوا ادبياً كما ارتقوا مادياً فيرتفع بذلك معدّل قوى الذكاء والنباهة في الامة . برافو مستر كرنيجي . على شرط ان لا تغض الطرف كل الغض عن الذين يموتون في الشوارع ولا يستطيعون الوصول الى هذه المكاتب . وهم أحوج الى لقمة منهم الى كلمة . والى مائدة منهم الى فائدة

اما الحل الذي وجدته في المكتبة لذلك السرّ الذي تقدمت الاشارة اليه فقد رأيته في تاريخ استعمار ولايات كناتكت وورود آيلند وماستشوستس وماين وهي ما يدعونه (نيو انكلند) أي انكلترا الجديدة . ولعل في هذه التسمية نفسها ما يشير الى ذلك السرّ وينمّ عليه

ان هذه الولايات التي يدعونها (نيو انكلند) كانت اول الولايات الاميركية التي عمّرها المستعمرون الانكليز المدعوون بطائفة البيوريتين . فان هذه الطائفة المشهورة في التاريخ الانكليزي هجرت انكلترا لتتمتع بحرية دينية مطلقة وتحفظ تقاليدها ومبادئها حفظاً مطلقاً فحطت رحالها في هذه الولايات وأخذت تصارع الطبيعة والهنود سكانها الاصليين فدحرتهم الى الداخلية وشرعت تبني البلدان وتقطع الاحراش وتزرع الارض — امور كانت يومئذ فوق الطاقة البشرية لو لم تسندها وتؤيدها مبادئها الدينية واملها في ان تعيش مطلقة الحرية في هذه المبادئ . ومن هنا ابتدأ التمدن الانكليزي في الولايات المتحدة وكانت هذه الولايات وما زالت قائدة شعب باقي الولايات كلها في كل ما يختص بالآداب الاجتماعية والعادات التقليدية . وكان من خواص مبادئ البيوريتين تقشف شديد . فهم يضغطون على حواسهم ضغطاً شديداً و يعدّون كل تمتع شراً صادراً

عن ابليس . وعندهم انه يجب قهر الجسد والنفس والانصراف الى الامور الروحية انصرافاً كلياً . فالخمرة عندهم شرٌّ كبير بل امُّ الشرور فيحرّمون شربها (١) والدخان شرٌّ صغير فكانوا يوجبون الحَدّ والقصاص على كل من يدخن تبغاً في الشوارع . وحفظ يوم الاحد أي الراحة المطلقة فيه سنة السنن عندهم . فكانت الابنة اذا زارت امها في يوم الاحد تُجزى أشد جزاءٌ . أضف الى هذه الامور التي يبتسم الناس لها اليوم رغبة حقيقية في طهارة المعيشة وحفظ الآداب الانجيلية وتوجيه قوى النفس الى الكمال الروحي . فهذه المبادئ كلها كان اول غرسها في هذه الولايات (ماستشوستس وماين وورود آيلند وكناتكت) والآن وقد مرّت القرون وقامت مبادئ وسقطت مبادئ وتحوّل الشعب الاميركي بكليته عن ذلك الغرض الروحي الذي نصبه امامه اجداده المستعمرون السذج يخيّل لي ولعلي غير مخطئ ان تلك (الريح الجديدة) التي شممتها منذ دخلت هذه الولايات وجعلتني اقول (الآن بدأت أحبُّ أميركا) انما هي أثر من آثار مبادئ البيوريتين القديمة اول مستعمري هذه الولايات . وهو عندي كأثر ريح الطيب يبقى في القارورة حتى بعد ذهاب الطيب منها وفراغها منه . بل هو عندي (خيال الخيال) الذي أشار اليه الفيلسوف رنان في قوله المشهور عن الذين

(١) من الغرائب التي ساتبسط في الكلام عنها منع بعض المدن في هذه الولايات بيع المسكرات واقفالها جميع الحانات . فقد مررت في وستر (ماستشوستس) فلم أرَ فيها حانة (صالون) والبوليس مشغول « بكبس » المنازل التي يشتبه بانها تبيع خمرًا او يجتمع فيها جمهور للشرب . وكمبردج (ماس) مدينة العلم (اذ فيها كلية هرفرد المشهورة) ليس فيها حانة ايضاً . والحانات في بوسطن تقفل بعد الساعة الحادية عشرة مساء بينما هي تبقى في نيو يورك مفتوحة الى ما بعد الساعة الثانية بعد منتصف الليل . اما ولاية ماين التي اكتب هذه الرساله منها فليس فيها كلها حانة واحدة لان بيع الاشربة الروحية ممنوع فيها كلياً الا في الصيدليات حيث تؤخذ كدواء

عاشوا مستندين الى الدين . قال : ,, ان المتدينين يعيشون من الخيال . ونحن الذين كنا مثلهم وانفصلنا عنهم نعيش الآن من خيال الخيال . فبعدنا ترى من أي شيء يعيشون ؟ ''

الجديد الذي رأيته

قلتُ انني انحدرت من الفندق الى شوارع البلدة لاراها في يوم الاحد . فرأيت صورة غير الصورة التي اعتدت رؤيتها في نيويورك . رأيت الحانات مقفلة وليس فيها (تهريب للمشروبات) كما رأيت في نيويورك . والشعب نشيط ولكنه هادئ يسير في الشوارع بسكينة وعلى وجهه لوائح فراغ البال بدل الاهتمام الشديد الذي يُرى في وجوه المجاهدين في سبيل الحياة . فكأنه يأكل خبزه ويحصل رزقه بتعب يسير لا بجهد كثير . ولم أرَ احدهم يثب وثباً في الشارع الى غرضه بل لاحظت انّ مشيتهم الهوينا . ومن جميع السيدات اللواتي مررت بهنّ ومررن بي في طول يوم الاحد واليوم الذي يليه لم الاحظ ان احداهنّ شبيهة بنساء الشارع الرابع عشر في نيويورك وما فوقه فاما انني جاهل في صناعة (التمييز) بين المليح والقبيح من هذا الوجه واما ان النسا اللواتي هنّ على ذلك المثال لا يهبطن الى الشارع . ولذلك كنتُ اشمُّ للشارع ريحاً طيبة ولم تقع عيني قط على رجل فيه يسارّ امرأة أو يداعب امرأة . وبعد الظهر كنت اتنزه مع بعض الاصدقاء على الضفة الجميلة للنهر المقابلة للمدينة بين المنازل الفخيمة المحاطة بحدائق غناءَ تسرّ الناظر وتروّح الخاطر فكانت السيدات والاوانس يمررن بي ولا يرفعن انظارهنّ نحوي . فخيّل لي انني أرى عذارى شرقيات يحبس الحياءُ نواظرهنّ الساجرة عن الارتفاع في وجوه ابناء السبيل . فلله كم لذّ لي ذلك المشهد بعد ما رأيت في نيويورك من استرجال كثيرات من النساء فيها . فتذكرت حينئذ قول المسيو بول بورجه في كتاب كتبه بشأن سياحته

في اميركا وهو ان وراء طبقة النساء المسترجلات في اميركا طبقة تعيش معيشة عيلية محضة وآدابها المنزلية لا غبار عليها من أي وجه . اقول هذا ولستُ من الكارهين لاستقلال المرأة وتسلمها زمام نفسها . ولكن الحق يقال وهو ان اولئك العذارى والسيدات اللواتي كنَّ يمررن بي على ضفة النهر ولا يرفعن انظارهنَّ نحوي ويمشين متنزهات بجانبي بحشمة وأدب مشية ذكرتني مشية بناتنا ونسائنا — ان اولئك العذارى والسيدات كنَّ من أكبر العوامل التي أوجدت فيَّ ذلك الميل الجديد الذي ترجمته في صرخةٍ جعلتها عنوان هذين الفصلين وهي (الآن بدأتُ أحبُّ أميركا)

سقيًا لكِ يا برية المدن وخلائها الواسع . يامن تصلحين ما افسدته المدنية وتجعلين النظر الى ابنائك يظنهم من طينة غير تلك الطينة . وانتِ ايتها الخيالات الادبية القديمة كم تعيش الآن منك امم حديثة ولذلك نرى انك في هذا أحق من الحقائق

بقي هنا سبب اجتماعي عظيم يحبب أميركا الى ساكنها خصوصًا المهاجر اليها وسنتكلم عنه في الفصل التالي وبعده ننظر في مستقبل اميركا ومدنيتها

آدم وحواء

أين سكنا

منشأ البشرية الاولى

المتطرفون في العلم الحديث يعدون آدم وحواء شخصين وهميين وجنة عدن حيث اقاما مكانًا خياليًا وقصة الابوين الاولين اسطورة تقليدية . على انه مهما يكن مبلغ هذه القصة من الصحة فلا بد من وجود الانسان الاول حتى ولو صح